الفصل الأول

" الحضارة " في اللغة العربية وبخاصة ابن خلدون :

اذا استنطقنا اللغة وجدنا ان الحضارة (بفتح الحاء أو كسرها) تعني في العربية الإقامة في الحضر أي في المدن والقرى ,بخلاف البداوة (كذلك بفتح الباب أو كسرها)وهي الاقامة المتنقلة في البداوي .

ابن خلدون :

- عالج شؤون الحضارة
- مؤسس علم العمران البشري
- مؤسس علم الاجتماع الانساني
- مؤسس علم الحضارات

البداوة اقدم من الحضارة والبدو اصل الحضر _الحضارة غاية للبداوة _

إنّ العنصر الأساسي في الحضارة عند ابن خلدون هو انشاء المدن وبناء البلدان , فانّ الحضارة جيل طبيعي وغاية للبداوية .

إنّ غاية العمران هي الجضارة والترف وانّه إذا بلغ غايته انقلب إلى الفساد وأخذ في الهرم كالاعمار الطبيعية للحيوانات , ووجز القول هو أنّ مفهوم الحضارة عند العرب عموما كان يدور على ذلك النمط من الحياة المناقض للبداوة .

ابن خلدون في محاولته استكشاف " طبائع العمران "أي قوانين تطور المجتمعات , فجعل البداوة والحضارة طورين طبيعيين من أطوار المجتمعات البشرية , واعتبر الحضارة بآخر هذه الأطوار و" غاية العمران " ويمكننا فهم الغاية هنا بمعنيين :من حيث انها تمثل خير نتاج المجتمع في الصنائع والفنون والعلوم ومظاهر الدعة والترف ,ومن حيث أنها المرحلة الأخيرة للعمران " ونهاية لعمرة وانها مؤذنه بفساده " .

وفي العربية الحديثة كلمة مرادفة للحضارة هي " المدنية " , وقد استعمل الفلاسفة العرب لفظة "مدني " بمعنى " اجتماعي " , وقد استعمل ابن خلدون صيغة " التمدن " بمعنى الحضارة أو التحضر .

" الحضارة " في اللغات الغربية وفي الأصطلاح العلمي الحديث سبق ابن خلدون :

واذا انتقلنا من العربية إلى اللغات الغربية وجدنا ثمة لفظيين رئيسيين تستعملان للدلالة على معنى الحضارة : **culture** و **civilization** .

إنّ كلمة **culture** مأخوذة عن اللاتينية (**culture** من فعل **colere** بمعنى حرث أو نمّى) . وقد كانت دلالة الأصل اللاتيني في العصور القديمة والوسطية مقصورة على تنمية الأرض ومحصولاتها .

وقد انتقلت هذه اللفظة إلى الألمانية من الفرنسية في أواخر القرن الثامن عشر .

وبرز المعنى الأخير في أواسط القرن التاسع عشر عند المؤرخ والعالم الإجتماعي الألماني **Gustav Klemm** _الذي يعتبر مؤسس علم الانثروبولوجيا الحديث _ هي مجموعة الحياة وأشكالها ومظاهرها في مجتمع من المجتمعات .

كلمة **culture** انتقل هذا المعنى من العالم **Gustav Klemm** إلى العالم الأنثروبولوجي (تايلور) الذي كان أول من استخدمه في اللغة الإنجليزية واثبته في كتابه الشهير عام 1871.

أما كلمة **civilization** الفرنسية أو **civilization** الإنكليزية فمشتقة كذلك من اللاتينية : من **civis** أي المدني أو المواطن في المدينة .

قيم اجتماعية يتفق عليها المجتمعات :

- الصدق
- احترام الوقت
- احترام الأمر
- النظافة

جرى بعض الكتاب , وبخاصة في الألمانية , على اطلاق **culture** على المظاهر المادية للحضارة (كالتكنولوجيا والصناعة وأمثالها) و **civilization** على المظاهر العقلية والأدبية .

- ❖ **Culture** هي دور الفتوّة والازدهار والإنتاج الروحي .
- ❖ **Civilization** هي دور الهرم الركود والإنتاج المادي .

يقول باحث امريكي كما استعمل **civilization** , للدلالة على دورين مختلفين من الأدوار التي تمر بها كل حضارة . أما الأول فهو دور الفتوة والازدهار والإنتاج الروحي , واما الثاني فدور الهرم والركود والإنتاج المادي .

ذكرنا آنفا غاية العمران ومبعث الفساد فالانهيار .

ولعلّ أشد هذه المحاولات انتظاماً واستمراراً هي تلك التي يقوم بها علماء الاجتماع والانثروبولوجيا , وبخاصة في الولايات المتحدة الأميركية , لابراز معناهم الاصطلاحي لـ **culture** وتعميمه , وهو المعنى الذي يفيد جماع حياة أي مجتمع من المجتمعات ويشمل مختلف أشكال هذه الحياة وفاعلياتّها ومظاهرها , ولا يقتصر على المجتمعات المتحضرة كما يكاد يقتصر عندهم معنى **civilization** .

ان " العمران " عند ابن خلدون هو مايقصده علماء الاجتماع والانثروبولوجيا اليوم بـ " **culture** " , ومفهومه مفهوم شامل يتناول الحياة الاجتماعية بكاملها ويضم مختلف أشكالها و ألوانها .

وانطلاقا من هذا المعنى يحدد ابن خلدون بحثه في مقدمته في ستة فصول : " الأول في العمران البشري على الجملة و أصنافه وقسطه من الأرض , والثاني في العمران البدوي وذكر القبائل والأمم الوحشية , والثالث في الدول والخلافة والملك وذكر المراتب السلطانية , والرابع في العمران الحضري والبلدان والأمصار , والخامس في الصنائع والمعاش والكسب ووجوهه , والسادس في العلوم واكتسابها وتعلمها "

الحضارة في هذه الدراسة :

لا نريد باللحضارة هنا المعنى الاصطلاحي الذي يبغيه بعض علماء الاجتماع أو الانثروبولوجيا اليوم من لفظة **culture** أي جماع حياة مجتمع من المجتمعات , بدائياً كان او متقدماً راقياً , وانما نعني نمطا من الحياة يتميز بخطوط وألوان من التقدم والرقي , وفي نطاق هذا المفهوم التقليدي , يمكننا ان نلاحظ دلالتين لهذه الكلمة كثيراً ما تختلطان وتضطربان في الاذهان فيحسن التمييز بينهما .

اما **الأولى** : فهي الدلالة على الحالة التي يتصف بها المجتمع المتقدم الراقي , الناتجة عن إنجازاته وابداعاته في الميادين المختلفة . فبهذا المعنى نقول مثلاً عن مجتمع من المجتمعات انه متحضر او بلغ مرتبة ما من مراتب الحضارة او ان الحضارة تقاس بمقاييس , أو تنطوي على قيم , أو ما إلى ذلك .

بهذا المعنى لا تطلق اللفظة الا بالمفرد , كما نطلق ألفاظ البداوة والتوحش والرقي و أمثالها .

اما **المعنى الثاني** : فهو الذي نقصده عندما نتكلم عن " الحضارات " البشرية التي تتابعت على مسرح التاريخ , كـ " الحضارة " المصرية , أو اليونانية , أو العربية , أو الغربية , أو عن الحضارة الإنسانية إذا كنا من المؤمنين بحضارة واحدة قد بدت بصور مختلفة أو اجازت مراحل متتابعة في خلال تطويرها .

ان دراستنا ستدور على الحضارة بهذين المعنيين الاثنين : وسنحاول أحياناً التمييز بينهما باطلاق " التحضر " على الأول : أي على الحالة والوضع والصفة , واستبقاء " الحضارة للمعنى الثاني أي للوحدات الحضارية التاريخية أو للوحدة الحضارة الإنسانية . ولكن هذين المعنيين قد تداخلا في اللفظة العربية او الالفاظ الأجنبية **culture** , **civilization** ومرادفاتها .

<u>شروط الحضارة :</u>

- سيطرة الانسان على الطبيعة من حوله وعلى الطبيعة البشرية – أن يسيطر الانسان على الطبيعة أو يخسر الإنسان الطبيعة _
- الاستقرار: الشروط التي تأتي بعد ذلك هي محصلة الاستقرار .
- التعاون الاجتماعي
- تيسير وسسائل الاتصال
- الكتابة
- نظام الحكم
- انشاء المدن .

الفصل الثالث

حَضارات مختلفة أو حَضارة إنسانية واحِدَة

المحاولة للتمييز بين مظاهر الحضارة تعجز اذن عن ان تفضل المظاهر فصلاً باتاً واضحاً : شأنها في هذا شأن أية محاولة غيرها , لأن الحضارة , كالحياة , متداخلة متشابكة تأبى الفصل والبت والتقسيم .

الأدوات والمنتجات والقدرة التقنية :

حقائق أساسية ثلاث : الأولى انا دعونا هذه الأمور " مظاهر " على اعتبار انها الوجوه التي تتجلى بها الحضارة . فحضارة المجتمع تبدو لنا , كما قلنا , من خلال الأدوات المادية والنظم والعقائد والفنون ومماليها من وجوه الكسب والإنتاج والابداع في حياة ذلك المجتمع .

أما الحقيقة الثانية فهي ان الحضارة تظهر حينما يكون صنع أو انشاء .

وكل ماهو على الطبيعة – سواء الطبيعة المادية الخارجية أو الطبع البشري الموروث – هو مادة للحضارة , ولكنه ليس مظهراً لها او عنصراً من عناصرها .

وثمة حقيقة ثالثة : هي ان الحضارة نتاج جماعي , بمعنى ان الفرد وحده لا ينشىء حضارة , وانما تتكون الحضارة في مجتمع .

بل ان الفرد لايوجد وجوداً حقيقاً الا في مجتمع وإذ ينشىء الافراد ويبدعون , فانما يحدث هذا بتفاعل فيما بينهم , وبينهم وبين مجتمعهم أو تراثهم وتقاليدهم .

انطلاقاً من هذه الحقائق الثلاث لنمضِ في تبيّين مظاهر الحضارة المختلفة .

اننا نلحظ بادىء الأمر تلك المظاهر الناشئة عن صنع الانسان في الطبيعة المحيطة به .

ويتمثل هذا الصنع في ثلاثة انواع من المظاهر . يتمثل اولاً في **الأدوات والآلات التي يخترعها الانسان** لاصطياد الحيوان , او لحراثة الارض , او لحياكة الثياب , او للتنقل من مكان الى آخر , او للاتصال بالآخرين او لمحاربة الاعداء , او لأي غرض آخر من الاغراض الكثيرة التي ينصرف اليها لكفالة عيشة ووقاية نفسه وزيادة قوته وثروته ومد نفوذه وسلطانه .

أما النوع الثاني من المظاهر الحضارية التي يتمثل بها صنع الانسان في الطبيعة فهو **المنتجات الحاصلة من استخدام هذه الادوات** , كالمحاصيل الزراعية , والسلع التجارية , والمصنوعات والمنشآت .

أما النوع الثالث ووسائل لفعله ونموه وتطوره .

ونعني بهذا النوع من قدرة الانسان على تطويع الطبيعة ودفع عواديها واستدرار ثرواتها . هذه **القدرة التقنية او المهارة التكنيكية هي** يبدو فيها الانسان بأجلى ما يبدو , صانعاً في الطبيعة : مستخرجاً مركباً مكيفاً مخترعاً مستكشفاً .

العادات , والفنون الشعبية , والفضائل , والقوانين , وأنواع التنظيم :

والحضارة تنشأ في مجتمع . والمجتمع لايقوم الا اذا كان له حظ موقور من التماسك والترابط . والتماسك والترابط يحدثان بفعل عاملين :

احدهما ميل الانسان الفطري الى ذويه ةاقاربه بالرحم والارض والجوار وشعوره بضرورة التعاون والتعامل في سبيل ضمان رزقه وحماية نفسه وبسط سلطانه والثاني حاجته , كما يقول ابن خلدون , الى " وزاع " يضمن السلطة والنظام ويدفع الشر والعدوان .

وتغور بعض هذه العادات والتقاليد الى أعماق نفوس الشعب وتختلط بمشاعرة وتسري في أشعاره وقصصه وأمثاله و أغانيه و رقصه وأزيائه ومصنوعاته التقليدية وشتّى صنوف تعبيره عن آلامه وآماله وافراحه و أحزانه وتبرز في اعياده ومواسمه وتقترن بحياته اليوميه , فيتألغ من هذا كله ما يسمى **بالفنون الشعبية , ومايتصل بـ " الفلكلور "** , وهو ذخيرة من العادات والفنون تنبع من أعمافق مصادر الحياة الاجتماعية ومنت اقدم المراحل الحضارية
- بل يعود بعضها الى ماقبل تكوين الحضارة – وما تزال تنقل من جيل الى جيل , وتزداد وتغزر حتى تغدو قسما مهما من التراث ومرآة تعكس صورة الحضارة وألوانها .

قلنا ان العادات والتقاليد هي من الروابط التي ينتظم بها المجتمع وان بعضها اشد اهمية , في نظر المجتمع , من سواها .

ومن العادات المهمة تلك التيي تنطوي على **أخلاق وفضائل اجتماعية** كالصدق والامانة , والمروءة والشهامة , والعفة والشجاعة واكرام الضيف واغاثة الملهوف , وامثالها .

هذه الاخلاق والفضائل هي قيم ومعان تنشأ من اصول لها في النفس اليشرية ثم تنمو وتتوالد , بالتجربة والاختبار , اذ يجد ابناء المجتمع فيها خيرهم وصلاحهم وفي ممارستها والحفاظ عليها ضمان سلامتها ورقيهم .

ومن وسائل تنظيم المجتمع وتنسيق علاقات افراده بيعضهم بعض وعلاقاته بالمجتمعات الاخرى : **الشرائع , القوانين الوضعية .** وهي تختلف من حيث المصدر الذي تستمد منه سلطتها . الشرائع تستقي من التعاليم الالهية والقوانين الووضعية تنشأ في الاكثر عن العادات والاعراف والتقاليد , وعن نظرة المجتمع العقلانية الي خيره وصلاحه , وعن نوع الحكم السائد فيه .

واذ ذكرنا الشرائع والقوانين , فلا بد من ان نذكر معها أنواع التنظيم السائة في المجتمع , فهما وجهان متصلان متفاعلان من وجوه الحضارة .

جهة ثانيه تؤثر فيها وتعمل في تكيفها . ثمة **التنظيم السياسي ومايتصل به من شؤون الحكم والادارة .** وهو , كما لايخفى على انواع فمنه الاستبدادي , والثيوقراطي , والملكي الدستوري , واليمقراطي بمختلف صفوف , والدكتاتوري , و أنواع أخرى كثيراً ما تدخل فتتقارب أو تتنافر .

وثمة **التنظيم الاجتماعي .** وهو الذي ترتسم به ملامح المجتمع ككل : أهو المجتمع القبلي , أما المدني , أما القومي , أ م غير ذلك ؟

وماهي الرابطة الكبرى التي تنظمه : اهي النسب أم الجوار , أم الدين , أم الحكم المشترك وهكذا التنظيم يحدد ايضا الوحدات والروابط في داخل المجتمع ذاته . ويتصل بالتنظيم السياسي والاجتماعي **التنظيم الاقتصادي .**

الدين :

- هو تعبير عن اطلاق النفس البشرية لنفاذها الى اسرار الطبيعة وما وراء الطبيعه .
- هو عقيدة يتمكن الانسان من خلالها ادراك ماهية وجوده وسر وجوده بحيث يحرص على معاني وقيم يسعى الى تحقيقها .
- هو مصدر للقواعد السلوكية في الحياة الفردية والاجتماعية وهو الى جانب ذلك (طقوس , عبادات , سلوك) لها آثار اجتماعيه لتوثيق العلاقات بين الناس (شرائع , نظم , تعليم) التي تحث عمل الخير وتنهى عن المنكر ولهذا فإن الدين يصبح المعين الاساسي للانسان في سر وجوده والغاية من الوجود .

لا يخلو المجتمع الا بوجود الدين , وادين عون للاخلاق وليس الاساس الصدق والامانة واحترام الطرف الأخر .

ولسنا في مقام التصدي له من مختلف نواحيه, بل نقف غي هذا الموضع عند ناحية واحده منه فحسب , هي دلالته الحضارية .

انه , في نظرنا ذو دلالة فائقة من نهذا القبيل , نظرا لما يتميز به من خواص . من ناحية الثانية ,عقيدة يتجسد بها هذا الانطلاق ويتلركز فيها ادراك الانسان لما حوله ولنفسه وتتجمع المعاني والقيم التي يؤمن بها ويحرص عليها وهو من ناحية ثالثة مصدر للقواعد السلوكية في الحياة الفردية والاجتماعية وهو الى جانب هذا كله , طقوس وفرائض لها ولاثرها الاجتماعي في توثيق العرى وشد الاواصر, وشرائع ونظم ومؤسسات تتغلغل في المجتمع وتربط اجزاءه ووحداته وتوجه نشاطه , وشكل الحكم والسياسة يعظم شأنه في المجتمعات الثيوقراطيه حيث يغدر اساس التنظيم ومصدر الحكم والادارة .

هذه الاسباب كلها اعتبرنا الدين مظهراً خطيراً من مظاهر الحضارة ولا بد لنا من القول اننا لانقتصر في كلامنا هنا على الاديان الموحدة بل نشمل جميع الاديان التي ظهرت في التاريخ مهمتا تكن معتقداتها ومايمانها بالقوة او القوى الاهلية التي ابدعت هذا الكون وتظل تهيمن تعليه . وكل دين من الاديان التاريخية له ايمانه واعتقاده المعين بهذه القدرة الخارقة للطبيعة . ولكل منحة دلالته الخاصة على الحضارة التي يتصل بها .

اللغة والكتابة :

اللغة تعبر عن الحضارة من وجهتين رئيسيتين : المفردات والتراكيب .

فالمفردات تدل على مدى سعة خبرات المجتمع وعمقها , وبالتالي على نوع الحضارة التي يتميز بها . فحيثما تكون الخبرات محدودة , بحكم غلبة الطبيعة الجغرافية او التخلف الاقتصادي او العلمي او سواه , تأتي مفردات اللغة محدودة المعاني ضيقة الدلالة .

والحضارة المعينة بالأشياء المحسوسة تكون لغتها فقيرة بالالفاظ عن الشؤون الفكرية والروحية . وهكذا في جميع الأحوال الأخرى : نجد اللغة دوما مرآة للوضع الحضاري السائد .

ولا تقتصر أساليب التعبير الجمالية على هذه الفنون " الكبرى " , بل تشمل أيضاً الفنون " الصغرى " , أو الفنون الصناعية , التي تتجلى في الأدوات والمصنوعات : في الأقمشة والسجاد والاثاث والرياش والأواني والكتب وأدوات الزينة وما اليها .

فإن صنع هذه الأشياء يتضمن أحياناً فنوناً من الحفر والنقش والتلوين والتزويق وسواها , ويقصد الى ضروب من تناسق الشكل وتناغم الخطوط والألوان , فتغدو بذلك تحفاً فنية ترضى الذوق وتلبي حاجة الاستمتاع بالجمال أكثر مما تخدم أغراض الاستعمال العادي . ولكل حضارة من الحضارات حظها ونتاجها من هذه التحف والطرائف , كما نستدل من بقاياها المحفوظة في المتاحف ودور الآثار .

العلم والفلسفة :

وكما ينزع الانسان أصلاً الاستمتاع بالجمال وابداعه , كذلك ينزع بطبيعته الى كشف المجهول وتقصي الحقيقة . ويدفعه هذا النزوع الى التساؤل عن ظواهر الأشياء وبواطنها وعن أحواله وصورها وعللها , وكل جواب يتوصل اليه يقوده الى سؤال او أسئلة أخرى .

وهكذا يمضي متسائلاً ومجيباً , متدرجاً في اكتشاف حقائق الكون وكوائن الوجود الانساني , مكتسباً ذخيرة علمية متوافرة متآلفة . وهو بهذا يستجيب لتوقة الأصيل إلى معرفة الحقيقة , ويعبر عن قلقه عندما تغيب عنه , وابتهاجه عندما تبين له , وحرصه عليها من أجلها ذاتها .

وشاهد خطير آخر متصل بالعلم , هو **الفلسفة** . فالعلم يتحرى الحقائق الجزئية ويتبع سبل التخصص والتفرع . ولئن كانت العلوم تتلاقى وتتحد بالأسلوب الذي تتبعه وبتجمع الحقائق المتفرقة وانتظامها وتفاعلها , فإن النظر الفلسفي هو الذي يتجه أولاً إلى الشمول ويكوّن نظريات وعقائد تتمثل بها المفاهيم الجامعة والصور العامة للطبيعة وللحياة الإنسانية .

الأشخاص : الذين ينشأون في ظل الحضارة ويفعلون فيها . فلكل حضارة رجالها ونساؤها البارزون الذين حفظ التاريخ ذكرهم وسجل سيرهم , وأولئك الذين غمرتهم الأحداث أو ضاعو في متايه النسيان .

ملاحظتان أخيرتان :

ها نحن أولاء قد طفنا بالحضارة ولحظنا مختلف مظاهرها من أدوات ومصنوعات وقدرة تقنية , وعادات وتقاليد , وفنون شعبية , ونظم سياسية واقتصادية واجتماعية , من لغة وكتابة , ودين وفن و أدب وعلم وفلسفة , وأشخاص بارزين ومغمورين .

بقيت ملاحظة أخيرة . إن الحياة تأبى نوعاً آخر من البتر , وهو الفصل بين السبب والنتيجة , أو بين العامل والمظهر . فغالباً ما يكون الحدث ذاته نتيجة وسبباً ومظهراً وعاملاً , على تفاوت بين درجة الانفعال والفعل فيه .

هل تجري التغيرات على صورة معينة ؟

موقف المنكرين والمحجمين :

يقف المؤرخين وعلماء الاجتماع من قضية التبادلات الحضارية – بل الأحداث التاريخية بوجه عام – مواقف مختلفة .

فمنهم من يطغى عليه تعددها وتفرقها وتنوعها , فلا يرى لها شكلاً أو أشكالاً تجمعها , أو نظاماً أو أنظمة تربطها بعضاً ببعض , بل يجدها أحداثاً وتغيرات متفرقة لكل منها ذاتيته واستقلاله ووحدته .

وخلاصة القول اننا لا نجد ضيراً في السعي إلى استكشاف الاشكال التي تتخذها التغيرات الحضارية , أو إلى تعليل هذه التغيرات (وهو ما سنتناوله في الفصل

التالي) . ونحن , كما قلنا سابقاً , لا ننكر وجود تلك الأشكال , وان كنا نقر بصعوبة تحديدها وبتنوعها وتعقدها .

صورتا التغير , التقدمي والتراجعي :

ان الذين ينكرون انتظام التغيرات الحضارية في أشكال معينة ويؤثرون الاقتصار على وصفها متفردة متعددة يقفون في طرف يقابله في طرف آخر موقف أولئك الذين يرون ان كل حضارة من الحضارات , وان الحضارة الانسانية بكاملها , تتغير حسب نظام واحد معين لا محيد عنه .

وخلال أجيال من التخيل والتفكير , منذ إن بدأ العقل الإنساني يعني بتقلبات الأقدار ويحاول سبر أغوارها وتصور أشكالها حتى يومنا هذا .

ولابد لنا قبل الانتقال من هذه الصورة إلى سواها من ملاحظتين أو تحوطين ليأتي وصفنا الموجز لها اقرب إلى الدقة . أولاهما أن هذا الاتجاه المتقدم يتخذ عند البعض شكل الخط المستقيم الذي قد ينتابه في بعض الأحيان والأحوال تعرج أو تحول أو توقف أو ارتداد ولكنه يعود فيسير قدما إلى الامام .

أما الملاحظة الثانية , وهي بالغة الأهمية , فهي ان هذه الاشكال التي ذكرناها تتضمن معنى الرقي من الأدنى إلى الأعلى أو الاكمال من الأنقص الى الأفضل , وهو معنى يلتصق اليوم بلفظة التقدم ومشتقاتها المختلفة .

صورة التغير الدوري :

وثمة صورة أخرى للتغير الحضاري الشامل قديمة قدم الصورتين السابقتين :

التقديمية والتراجعية , وهي الصورة " الدورية " التي تمثل هذا التغير متخذاً شكل " دورة " واحدة أو " دورات " متتابعة يجوز خلالها " أدواراً " معينة . وإذا كانت اصول الصورة السابقة تعود إلى الشعوب السامية , فإن اصول هذه النظرة الدورية تبدو عند الشعوب الهندية الاوروبية .

واذا انتقلنا إلى الفكر اليوناني , وجدنا هذه النظرة الدورية عند افلاطون '. فالشعوب والحضارات عنده تنشأ وتنضج ثم تنحل . حتى جمهوريته ذاتها لا تخرج عن هذه القاعدة فلا بد من أن تنحل وتزول . ولكن ليس ما يدل على أن هذه الفكرة تكون ركناً أساسياً من أركان فلسفته . وكذلك يمكننا ان نستنتج تصوراً دورياً من آراء ارسطو في تبدل الأحكام والدساتير وقيام الثورات , وان لم يتخذ هذا التصور تعبيراً صريحاً . وعلى كل حال , لسنا نجد عند افلاطون

أو أرسطو أي تعبير واضح للصورة الأولى أي للتغير الاجتماعي أو الحضاري المتقدم .

أما في القرون الوسطى , فقد سادت المسيحية في الغرب والعقيدة الإسلامية في الشرق , وكلتاهما لا تتفقان والنظرة الدورية , لان للحياة فيها غاية معينة تسير إليها .

و إذا بلغنا العصر الحديث , وجدنا أمثلة كثيرة لتخيلات ودراسات تصوّر التغيرات الحضارية بشكل دوري . ولكنها تنصبّ في الأكثر على أحداث وتغيرات معينة , كالأحوال الاقتصادية (الدورات التجارية) , وأنظمة الحكم , والثورات , والولادات والوفيات , والجرائم و الإنتحارات , وما إلى ذلك .

ويلخص سوروكين المفاهيم الدورية التي ظهرت في التاريخ بما يلي :

1-دورات متطابقة متكررة تكراراً

2- دورات تسير في خط مستقيم أو لولبي وتتجه نحو غاية معينة .

3- دورات ومعاودات ليست متطابقة ولا متجهة نحو غاية معينة :

1- في أزمنة منتظمة

2- في أزمنة غير منتظمة

ويتضح من النوع الثاني الذي يذكره سوروكين , ان ثمة صورة ثالثة للتغيرات الحضارية .

وقد جاء توينبي بتشبيه آخر لهذه الحركة المركبة التي يتخيلها متكررة ومتقدمة بالوقت ذاته . لقد شبهها بحركة العجلة الناتجة عن حركة دواليبها .

فالدواليب تدور فعلاً على محاورها دورات متكررة متتابعة , ولكن حركتها الدورية هذه هي التي تسير بالعجلة إلى الأمام . وهكذا فإن للحضارة حركة شاملة متقدمة إلى الأمام , وهي , بالوقت ذاته , حصيلة حركات دورية جزئية .

المواقف البارزة التي اتخذها المفكرون من قضية التغير الحضاري والتبدل التاريخي بوجه عام . وهي تنظيم , في جناحين رئيسيين احدهما جناح الذين لايرون في التبدل التاريخي أية سنة ظاهرة أو شكلاً واضحاً , بل أحداثاً تتابع وتتشابه وتختلف , ولكنها تظل أحداثاً فريدة طائة لاتكون نسيجاً جامعاً أو نظاماً شاملاً , فهم بهذا ينفون أن يكون في التاريخ أي تكرار أو غعادة بل يرفضون أي قول بانتظام الأحداث البشرية في شكل عام معين . أما الجناح الثاني فأصبح

يرون هذا الإنتظام , ولكنهم يصورون شكله صور مختلفة ذكرنا منها ثلاثة : صورة التبدل المتجه إلى غاية معينة (امامية أو خلفية , تقدمية أو تراجعية) , وصورة التبدل الدوري المتكرر , والصورة الجامعة لهاتين الحركتين : أي للتبدل المتكرر والمتجه بالوقت ذاته إلى غاية معينة .

صعوبة بت هذه القضية وحداثة المعرفة المحققة فيها :

ان هذه القضية هي من أكثر القضايا التاريخية غموضاً ومن أشدها تعقداً , بل انها تبلغ من الغموض والتعقد أبعد الحدود .

وأولى هذه الملاحظات هي انه يجب ان نميز بين التغيير الحضاري الشامل والتغيرات الحضارية الجزئية , أو , كما قال توينبي , بين الحركة الحضارية أو التاريخية الكبرى والحركات الصغرى التي تتألف منها .

ولكن يتكون هذا العلم تكوناً سلمياً وينمو باطراد لابد من دراسات مستمرة للتغيرات الجزئية التي تعري المظاهر الحضارية المفردة , كالسياسة والحكم والاقتصاد فة العلمية والفن وسواها لنرى ما إذا كانت تتبع سنة معينة , وتتخذ شكلاً واضحاً . ولا مفر , بعد هذا أو معه , من ان نعمد الى مقارنة هذه السنن والاشكال ومقابلاتها لاستكشاف اي تناسق أو ترابط قد يكون بينها _كأن نقول مثلاً بين التغيرات في الاقتصاد والمعرفة العلمية ونوع الحكم _ ولنتبين ما إذا كانت سننها تنظيم في سنن أعم واشكالها تترتب في أشكال أوعى وأشمل .

وقد حاول مؤرخون وعلماء اجتماعيون دراسة بعض هذه التغيرات .

فمنهم من انكب مثلاً عللى دراسة الفن ليرى ما إذا كانت انواعة مختلفة_ العمارة والنحت والتصوير والأدب والموسيقى _ تنشأ وتزدهر وتذوي بترتيب معين أو حسب سنة واضحة , أو ما إذا كانت النزعات التي تغلب عليه _ كالحسية والرمزية والنقدية وسواها _ تجري على نسق او سياق , وتشمل الأنواع كلها في المرحلة الواحدة أو تتوزع بينها , إلى غير هذه من محاولات لاستخراج سنة للتغيير الذي يطرأ على الفن في الحضارة الواحدة أو في الحضارات عموماً .

موقفنا من هذه القضية :

هذه ملاحظة عامة تدور حول ماهية القضية التي نحن بصصدها وطريقة معالجتها . واذا أجزنا لنفسنا بعد هذا ان نبدي بضعة أحكام في هذه القضية المستمدة من دراساتنا وتاملاتنا , على مافيها من نقص ومن قصور عما يتطلبه جلال الموضوع وسعته , فإننا انما نفعل ذلك بصورة تمهيدية ونتقدم بما نتقدم

به بشكل فرضيات قد ثبتها أو تعدلها او تنقضها الابحاث الاختصصاصية والدراسات المقبلة في هذا المجال البكر .

اننا نعتقد أن القول بحركة تاريخية أو حضارية دورية مطلقة _ أي بأن التغيرات الحضارية الجزئية أو الشاملة تتخذ شكل دورات متطابقة وان الاحداث والوقائع الحضارية تعود إلى ما كانت عليه بالضبط _ان هذا القول لا يسنده المنطق أو الواقع . فالحياة في تغير مستمر , والاحداث تتكرر , فانها ليست هي هي بالذات .

وكذلك يعر علينا ان نأخذ برأي القائلين بأن جميع الأحداث الحضارية تتجه إلى غاية معينة تقدمياً أو تراجعياً . فثمة أحداث ومظاهر تتبع خطاً تقدمياً كازدياد عدد السكان الارض (وقد أنكر بعض الاخصائيين وعلماء الاجتماع التقديمية حتى في هذه الظاهرة) , أو فيتطور التقنية والصناعة , أو في نمو المعرفة الايجابية بوجه عام .

انا مع القائلين بان التاريخ يعيد نفسه , ولايعيد نفسه بمعنى بخر . انه لايعيد نفسه بمعنى ان كل مايحدث يختلف عما سبقه , ويعيد نفسه بمعنى ان الكثير مما يحدث يشبه ماسبقه وان لم يكن هو ذاته .

لاشك في ان في التغيرات الحضارية وفي التبدلات البشرية بوجه عام , تكرارات ومعاودات ودورات , كما ان فيها تقدمات وقفزات وارتدادات , ولاشك في ان بعض هذه الظواهر طويلة لأمد وبعضها قصيرته , وانها حينا أمضى وأسرع مما هي في حين آخر , ولا شك أخيراً في أنها متفاعلة بحيث ان بعضها يؤثر في بعض ويتأثر به , على اختلاف في شدة هذا التفاعل أو ضعفه باختلاف المراحل و الأوضاع .

ظاهرتا التشابه والتراكم في التغير الحضاري :

ومهما يكن من أمر هذه الصورة الجامعة عندما يتاح للعلم رسمها , فإنها ستبدي , في مانفترض ,

ظاهرتين أساسيتين :

- ظاهرة التشابه
- ظاهرة التراكم

وهذا الافتراض قائم , من جهة على النتائج المتفرقة التي توصل اليها الباحثون في دراسة بعض التغيرات الحضارية المحدودة , ومن جهة اخرى على مفهومنا لطبيعة الانسان ونزعاتها الاساسية . ففي الانسان _ اينما كان

ومتى كان _ نزعات أساسية ان لم نقل انها هي ذاتها دون تبدل أو تغير , فهي على كل حال متشابهة متماثلة على اختلاف الأزمان والأحوال .

ان قوام الحضارة يتكون من نظرة الانسان إلى الكون ومن مفهومه للحقيقة وان هذا القوام يسبغ على الحضارة , او على المرحلة الحضارية , طابعها الذي يميز جميع مظاهرها , فإن هذا أيضاً مما يؤيد حدوث التشابهات الأساسية في الأشكال الحضارية . ذلك ان أنواع النظر إلى الحقيقة لا تتعدد إلى غير نهاية .

هذه ظاهرة . أما الظاهرة الثانية _ التراكم _ فنستدل عليها أيضاً اختبارياً من نتائج الأبحاث الجتماعية , ومنطقياً من تأملنا للطبيعة الإنسانية . فمن أهم مزايا الانسان قدرته على التعلم وعلى الافادة من الاختبار .

التعليل القَدَري :

إذا ألقينا على هذه النزاعات نظرة مجملة مبسطة وجدناها تتوزع الى ثلاثة مجار رئيسية . أولها ذلك الذي يقف أصحابه موقف الهيبة والتحفظ ويعلنون عجزهم عن اخراق حجب الأحداث والكشف عن القوة أو القوى التي تتحكم بها . وإذا ماتقدم أرباب هذا الموقف من الانكار الى الاثبات وأطلقوا على هذه القوة المجهولة اسماً يعرّفها , قالوا : القدر .

ولكن هذه التسميه لا تزيدها تعريفاً لأن القدر يظل سراً من الاسرار , بل هو سر الاسرار الذي لاتنفتح مغلقاته ولا ترتفع حجبه , ويبقى الحاكم المختبئ المسيطر على الاحداث المتحكم بها والمحتم سيرها ومجراها .

تتخذ هذه الفكرة شكلين مختلفين : اقدمها ذلك الشكل الذي نجده عند الشعوب التي لم تنم عقلانيتها ولم تكتسب حظاً كبيراً من التسلط على الطبيعة .

أما الشكل الثاني فقد بدا أيضاً عند اليونان والرومان , كما بدا عند الهنود والصينين . وهو يمثل القدر لا بصورة قدرة غير مفهومة تخبط خبط عشواء دون سنة او قانون , بل بصورة قوانين وسنن معينة لا تتغير ولا تتبدل , ولا يمكن أن يكون للانسان أي أثر فيها , بل ان كل مايسطيعة هو ان يحاول ادراكها وتكييف حياته وفقاً لها , والسعي للتخلص من سطوتها وحكمها .

التعليل الإلهي :

اذا كانت فكرة القدر قد بدت بدت واضحة عند اليونان والرومان والهنود والصينين القدماء , فإن فريقاً آخر من الشعوب القديمة قد سلك مسلكاً غير هذا , وكون تأمله للاحداث التاريخية وتفكيره فيها مجرى متصلاً لم يلبث أن برز في حضارات واسعة النطاق وطغى على عصور مديدة من التاريخ . اننا نشير هنا الى الشعوب السامية القديمة . فلقد آمنت هذه الشعوب ايماناً شديداً بآلهتها وبسلطة هذه الآلهة على الأحداث البشرية , ثم تدلرجت الى الايمان بالإله الواحد مبدع الكون وخالق الانسان وموجه الحياة والتاريخ فكانت الاديان الموحدة : اليهودية , والمسيحية , والاسلام , وكانت الحضارات الرفيعة المديدة التي نشأت عنها أو تأثرت بها .

ان جوهر العقيدة التي تشترك بها الاديان الموحدة _ فيما يختص بموضوعنا هنا , أي تعليل الأحداث البشرية والتغيرات الحضارية _ هو ان العلة الأولى التي تصدرعنها كل علة أخرى هي الله تعالى . فهو الخالق المبدع . التي تنبسط مشيئته وعنايته على الكون والحياة , وما غاية التعليل هنا سوى فهم هذه المشيئة الإلهية والعناية الربانية .

التعليل التاريخي :

تنشأ وتزدهر وتنحل وتزول العقائد الوحدانية جابهت مشكلة التوفيق بين حرية الانسان وقدرته من جهة , والعناية الاهية والقدرة الالهية المطلقتين من جهة أخرى , وتساءلت عما إذا كان للانسان ذاته أثر في الأحداث البشرية وفي التبدل الحضاري .

كذلك اختلفت هذه العقائد , في داخلها وفي مابينها بقدر ما أقرت من نظام يسود الطبيعة ومن قوانين تسيطر عليها .

فثمة اتجاه معاكس يجعل كل حدث طبيعي – وان يكن ضئيلاً أو عارضاً _ ناتجاً مباشرة عن ارادة الله وفعله .

التعليل اللطبيعي والبشري :

ينبع هذا المجرى من مظاهر قديمة في الحياة العقلية الانسانية , حين أخذ الانسان يجوس خفايا الكون بعقله أن تكون , ضئيلة متفرقة , ولم تتفتح وتتوسع وتتجمع الا بعناء وجهد وببطء وتدرج . فكان في هذا التفتح بداية العلم والفلسفة .

وكان لكل من الشعوب القديمة حظه من هذا الانجاز ,وهو حظ ضئيل اذا قيس بانجازات العلم الباهرة ومكاسبه الضخمة في هذه الايام , ولكنه عظيم القيمة وافر الدلالة اذا اعتبرنا صعوبة البدء وعسر التفتح العقلي في مراحله الأولى . ولا شك في أن قصب السبق في هذا الميدان كان لليونان القدماء.

ثم جاءت المسيحية وجاء بعدها الاسلام , فتقاسما العالم المتحضر بين غرب مسيحي وشرق اسلامي .

وأقبل كلاهما في عهودها الاولى على التراث اليوناني في العلم والفلسفة , وفترت بعد ذلك الهسة الغربية وتراخت صلتها بهذا التراث وانقطعت أو كادت , بينما نشطت الشعوب الاسلامية الى الافادة منه والاضافة عليه , فكان هذا من اهم اسباب تفوقها في العصور الوسيطة وازدهار حضارتها في بلاد المشرق والمغرب وتقدمها في ميادين العلم والفكر وتأثيرها المنبه الفعال في بعث الحضارة الغربية .

وأخيراً , لا بد من الشارة الى الذين ينظرون الى الحضارات , والى المجتمعات الانسانية , ككائنات عضوية , ويُرجعون تبدلها : نشوءاً واكتمالاً وانحلالاً وزوالاً , الى مثل العوامل المحتمة التي تفعل في الكائنات العضوية الحية , ويجعلون لهذه الكائنات الاجتماعية قدرها من الفاعلية وحدها من الحيوية والنمو , لا بدّ بعدهما من أن يعتريها ما يعتري الكائنات الحيّة من توقف فضعف فانحلال , حسب قوانين الطبيعة وسنن الحياة .

وجوه اختلاف مذاهب هذا التعليل واتفاقها :

هذه بعض المجاري المتفرعة عن المجرى الرئيسي الثالث من مجاري التعليل , وهو الذي يتحرى – كما قلنا _ الأسباب البشرية والعوامل الطبيعة ويسلك في تحريه سبل البحث الاختياري والدراسة العلمية دون التمسك بعقيدة أو بفكرة مسبقة . وقد عددنا , هذه المجاري الفرعية دون محاولة منا لاستقصائها أو للتبسط في محتواها وذلك لان مايهمنا منها هنا هو النظرة المشتركة والاتجاه العام وليس المواقف والاتجاهات الخاصة والحجج التي تستند اليها مما يتطلب دراسة , بل دراسات قائمة بذاتها.

ثم ان هذه المجاري أو المذاهب التعليلة تتفاوت _ وهذا وجه اختلافها الثالث _ من حيث درجة استمساكها بالأسلوب العلمي واعتمادها الاختبار والاستقراء في صوغ نظرياتها .

هذه هي بعض النواحي البارزة التي تختلف فيها المذاهب العديدة التي يضمها مجرى التعليل الطبيعي والبشري . على ان هذه المذاهب , مع ما بينها من اختلاف , تتفق في مواقف تعمها جميعاً وتميزها من اتباع المجريين الرئيسين السابقين . فهي بمجموعها تنطلق من اعتقاد أساسي هو أن تبدل الأحداث والحضارات لا يعود لقدر متحكم يضرب كما يشاء دون سنة أو نظام ولا لقوى أو قوة مجهولة منحجبه عنها , بل يصدر عن عوامل يمكن ادراكها واكتناهها بالدراسة العلمية والبحث الاختباري المتصل .

ثم انها تتفق في اتجاهها الطبيعي والبشري , أي في تحريها للعلل القائمة في هذا الكون وهذه الحياة واكتفائها بها وسكوتها عن العلة الإلهية أو انكارها لها . وبهذا تختلف عن المجرى الرئيسي الثاني من مجاري التعليل .

موقفنا من هذه القضية :

ان اتجاهنا في معالجة هذه القضية الشائكة ينطلق من المواقف التالية :

1- ان علمنا الخاص لا يؤهلنا لاتخاذ موقف نهائي فاصل في هذه القضية . ذلك انها من السعة والعسر والتعقيد بحيث يصعب حصرها وحلّها , والاحاطة بالمعلومات الضرورية لاستخراج تعليل ينطبق على جميع الحضارات ويسري على الاحداث البشرية بكاملها . ونعتقد ان الذين تقدموا أو يتقدمون بتعليل بهذا الشكل يستهينون هذه الصعاب , ويعمدون , واعين او غير واعين الى تبسيط الوقائع الحضارية , والى اهمال بعض جوانبها او بتر بعض روابطها .
2- اننا نعتقد أيضاً انه , على الرغم من الجهود العلمية والفلسفية التي بذلت في القرون الماضية , لايزال علم الاجتماع في مراحلة الاولى , سواء من حيث الاستقرار على أسلوب منضبط موثوق به , أو من حيث النتائج التي توصل اليها .
3- وفضلاً عن هذا : ان هذه القضية _التي تنعكس فيها قضايا الحياة بكاملها _ لا تنحصر في النطاق الاجتماعي فحسب , بل انها تنفذ الى عالم الطبيعة : طبيعة الكون , والطبيعة البشرية . فلا بد اذن من ان تتفتح دراستها الى التحقيقات والنتائج التي تسعى اليها العلوم الطبيعة كالفيزياء وعلوم الاحياء وعلم أصول الاجناس وكل علم آخر يحاول استكشاف أسرار الكون والحياة في الجانب الذي يختص به او يتصدى له .
4- ولذا , فالموقف الوحيد الذي يتيحهالعلم في مرحلته الحاضرة لمن يقدم على التحليل الحضاري الشامل هو ان يعتبر تعليله تقريبيا وموقتاً , وان

يتخذه كافتراض توصل اليه بدراسته للأحداث وعللها , وان يعمد باستمرار الى امتحان هذا بالافتراض , وحكة بمحك الاختبار , وتقصي مطابقته للوقائع الجزئية المستجدة .

5- ان هذا الشك ليقوى ويشتد عنما يكون التعليل " أحدياً " .

فنحن لسنا من الذين يعتقدون بأن نشوء الحضارات والتبدلات التي تطرأ عليها يمكن أن تعود الى عامل واحد, مهما قوي فعله وعظم أثره .

6- ومع هذا , فاننا لا ننكر ما كان للتعليلات"الاحدية " من فضل في توجيه الأنظار إلى علل وعوامل لم تكن مقدرة قدرها الصحيح أو موفاة حقها ,

7- ان العوامل الاساسية في التبدلات الحضارية هي في نظرنا عوامل انسانية ارادية كسيبة .

ونحن نرى الحضارات تنشأ وتزدهر بقدر مايبذل ابناؤها من جهد وسعي , وتذوي وتنحل كلما خف هذا السعي وانقطع .

ان الحضارة تبدأ بالجهد الاكتسابي , ويتوقف نوعها واستمرارها على نوعه ومداه .

وليست هي شيئاً ثابتاً يحصل ويظل بذاته إلى الابد بل هي نتاج سعي ينمو وجهد يتجدد . " ان الحضارة _ اية حضارة _ هي أبداً في خطر ثمة أخطار تنزل بها من الخارج وثمة أخطار أشد هولاً تنتابها من الداخل . ولذا يترتب على ابنائها أن يكونو دائما يقظين حذرين .

ان الحضاررات تنتحر ولا تقتل وانتحارها ليس حدثاً فرداً تنزله بنفسها , وانما هو هبوط بطيء او سريع في همتها , وفتور في سعيها , وتراخٍ في فاعليتها .

8- ومعنى آخر نريد أن نبرزه : هو ان الوعى الانساني للإمكانات والحدود والسعي الذي يبعثه هذا الوعي يتجسدان عادة في فريق من ابناء المجتمع , وهو الذي يقود المجتمع قدما في سبيل الانشاء الحضاري , فإذا انخفض هذا الفريق أو انعدم تراخى المجتمع وانحطت الحضارة .

9- ومما يجدر , في نظرنا , ابرازه أيضاً فعل العقل الإنساني .

فالانسان , كما حدد ارسطو , حيوان ناطق , وميزته الاساسية هي العقل .

بالعقل يدرك ما حوله ويدرك ذاته وفي نطاق هذا الادراك يعمل ويتصرف . ومن طبيعة العقل انه متفتح متطور . قد تطغى عليه بعض

قواهر خارجية , أو قد يعتريه فتور داخلي , ولك طبيعته تعود فتتغلب عليها , ويعود هو الى التفتح والانطلاق .

10- وأمر أخير نود الاشارة اليه في معرض بحثنا عن عوامل التبدل الحضاري .

هو ان نشوء الحضارات وازدهارها ينتجان عن فضائل مكتسبة , وان ذبولها وانحلالها يدلان على ضياع الفضائل وانتشار الرذائل .

اما مفهومنا للقضية فنلخصه بأنه انطلاق الذات من حدودها . والرذيلة , على العكس هي الرضا بهذه الحدود وجذب الغير اليها . فالادراك الصحيح يقتضي الانفلات من الاوهام والاهواء لرؤية الحقيقة والخضوع لها ونيل الظفر بفضل هذا الخضوع , والجهد العملي الفاضل هو الذي يتحرر أيضاً من هذه الأهواء ليلتقي الغير التقاء ادراك ومحبة . اما الرذيلة فهي في الانطواء على الذات : ذاتاً فردية كانت أو جماعية , وفي اخضاع الغير لهذه الذات اخضاع قسر وتحكم . والناس اساساً فريقان : فريق منغلق , وفريق متفتح .

الحضارة تتواصل وتتفاعل :

على ان ثمة نوع آخر من التغيرات يعتري الحضارات : هو الذي ينتج من اتصالها بعضها ببعض , وتفاعلها , وتبادلها العناصر والمؤثرات . وفي هذا التفاعل والتبادل بينها شبه آخر لما يجري بين الكائنات الحية . وهو دليل جديد على دينامية الحضارة . ذلك ان من الخصائص المبتدعات الحضارية انها لا تنحصر ضمن المواطن الاجتماعية التي تظهر فيها , بل تخترق حدود هذه المواطن وتسري الى غيرها . انها تنشر في ما حولها , ويكون مدى انتشارها تابعاً لقوة نفاذها من جهة ولاستعداد غيرها لتقبلها من جهة أخرى .

وهذا الفعل الانتشاري هو ميزة من أهم ميزات العناصر الحضارية . ولقد تعلق بهذه الميزة بعض علماء الاجتماع والحضارة وأولوها عظيم الأهمية وعللوا بها سائر التغيرات الحضارية التي حدثت خلال التاريخ . واذا تنتقل العناصر الحضارية من موطن إلى آخر تتأثر بعضها ببعض وتؤثر بعضها في بعض , كما ان الحضارات بكلياتها تتواصل وتتفاعل وتتبادل . وهذه الخاصة الأساسية من انه يتعلم ويعلم , ويقلِّد ويقلَّد , ويأخذ ويعطي . وبهذا التبادل يتكون المجتمع , وتنشأ حضارته وتزهر

وتثمر ز فاذا ما اتصلت المجتمعات , وتماست الحضارات , أدت الطبيعة الانسانية الاجتماعية ذاتها الى مثل هذا التبادل , والى تفاعل الحضارات فيما بينهما , والى تمازجها وتلاحقها , وأدى هذا التبادل والتفاعل والتلاقح إلى مظاهر ونتائج هي في مقدمة الأحداث التاريخية والمولدات الحضارية .

سبل التفاعل الحضاري ووسائلة :

ولنتسائل أولاً : كيف يحدث هذا التفاعل وماهي طرقة ومسالكه ؟ انه يحدث حيثما يقوم اتصال بين مجتمع ومجتمع وبين حضارة وحضارة . ويجدر بنا أن نبادر الى القول ان هذا الاتصال يختلف قوة وسعة تبعاً لطبيعة المحيط الجغرافي ودرجة التطور الحضاري . فلقد عرف التاريخ مجتمعات منعزلة في الجبال أو الأودية أو الصحاري أو الأدغال أو المناطق الجليدية أو الجزر النائية , فكانت هذه العوائق الطبيعية حائلاً دون اتصال هذه المجتمعات بسواها وتفاعلها واياها ودون ظهور النتائج المهمة التي تنجم عن ذلك . على ان التطور الحضاري , والتقني بصفة خاصة , قد تغلب تدريجياً على هذه العوائق , وقارب بين شعوب الأرض , ونشر أسباب التماس والتعامل بينهما , حتى كان هذا العصر بمخترعاته ومآتيه العجيبة في اقتحام الحواجز واختصار الأبعاد , فكادت الفلبة على هذه العوائق تكون تامة ناجزة , وإذا العزلة قد زالت من سطح المعمور وغدت المجتمعات دائمة التواصل , وإذا العلاقات الإنسانية قد توثقت وتشابكت , وارتبطت البشرية فيما بينها يربط حية فاعلة وبمصالح متبادلة , بل بمصير واحد .

من هذا السبل , الغزوات والحروب والفتوح . فحيثما غزا مجتمع مجتمعاً آخر , وسواء غلبه أوغُلب على يده , حدث بين المجتمعين تبادل وتبادل يضيقان أو يتسعان بحسب المدة التي يستغرقها النزاع والمآل الذي يؤدي اليه . فإذا كان الغزو عارضاً قصير المدى وعاد المجتمعان بعده الى مواطنها و أحوالها القديمة , جاء أثره ضئيلاً محدوداً .

من هذه السبل أيضاً انتقال الأشخاص من مجتمع إلى آخر , على اختلاف حاجاتهم ومهامهم و أغراضهم . فثمة الرحالون يجوبون البلاد الغربية والمناطق النائية ارضاء لشهوة الريادة والمغامرة أو رغبة في الكشف والمعرفة . وثمة التجار ينتقلون من بلد إلى بلد , عبر البراري والبحار , حاملين السلع والبضائع ساعين الى كسب و الربح , وثمة المؤمنون المبشرون يضربون في الأرض مدفوعين بقوة خفية لبث

رسالتهم ونشر عقيدتهم . وثمة المتعلمون يرحلون الى مراكز العلم , والمعلمون يسعون الى ميادين جديدة يفيدون فيها بمعرفتهم ويستفيدون . ان انتقال الشخاص هذا الى مجتمعات أخرى قد تكون عابراً أو دائماً , واقامتهم فيها قد تقصر أو تطول , وقد يكون الأشخاص المنتقلون أفراداً متفرقين أو قوافل وجماعات ينزلون البلدان الجديدة فيؤلفون جاليات لها صلة بموطنها القديم وصلة بموطنها الجديد . وعن طريق هذه الاقامة , القصيرة أو الطويلة , يحصل تبادل المثرات وتلاقح المعايش والعوائد والأخلاق وسواها من عناصر الحضارات . والتاريخ مليء بالأمثلة على ذلك . فلنكتفش ممنها باثنين : أولهما ماحدث في القرنين الثاني عشر والثالث عشر من انتقال قوافل الصليبين من شتّى أقطار الغرب وبفعل دوافع متعددة متباينة الى البلاد المقدسة , ولقد كان هذا الأخذ والإفادة _ كما هو معروف _ من السبل الرئيسية التي سرت منها مؤثرات الحضارة العربية إلى الغرب , حيث كان لها فعلها البارز في تنبيه المجتمع الغربي وفي اعداد نهضته في مطلع العصر الحديث .

أما المثل الآخر فنستمده من عصرنا هذا حين أخذ مجرى التأثير الحضاري ينتقل من الغرب إلى الشرق . فلا شك في ان انتقال الغربين افراداً وجماعات _ ساسةً حاكمين أو تجاراً أو مرسلين أو روادا مغامرين أو غير ذلك _الى بلاد الشرق ونزولهم فيها حمل الى هذه البلاد عناصر الحضارة الغربية وأسهم بنصيب وافر في بعث النهضات في مختلف البلاد الشرقية . ويقابل هذا الانتقال من الغرب إلى الشرق , انتقال الشرقين الى الغرب طلباً للعلم أو رغبة في الطلاع , أو بدافع الطموح الى المجالات للعمل والعيش أرحب و أوسع أو لغير هذا أو ذاك من الأسباب . فاذا ماعاد هؤولاء الى مواطنهم الأولى حملوا واياهم عادات وافكاراً و أساليب جديدة تفعل فعلها في حياة هذه المواطن وفي أواضاعها الحضارية . حتى عندما يبقون في مواطنهم الجديدة فغن تأثيرهم لا يظل محصوراً فيها بل يشق طريقه أيضاً الى منابتهم ومنازلهم الأولى , كما فعل الأدب العربي المهجري التي زها في مهاجر اللبنانين والسوريين والذي كان له أثره في النهضة الفكرية و الأدبية في البلاد العربية عامة . ولا حاجة لنا في تعداد هذه الامثلة وتفصيلها , فان من البيّن الواضح ان الاشخاص هم من اهم حملة العناصر الحضارية , ومن افعل وسائل نقلها , بل أنهم كانوا في الماضي , قبل ان تتوفر الوسائل الأخرى التي سنتحدث عنها فيما يلي ,أبرز عوامل هذا الحمل والنقل . فلا بد أن تتواصل هذه الحضارات عن طريقهم و وان تنتقل

بانتقالهم من مجتمع الى آخر الـأشياء المادية والأفكار والمعتقدات ومذاهب العيش وان تتفاعل وما تلتقيه أنّـى يكون ومهما يكون .
قلنا: الأشياء المادية , ويحسن بنا أن نقف قليلاً عندها . فكل مادة من المواد , خاماً كانت أو مصنوعة يستعملها مجتمع من المجتمعات لغرض من أغراضه , هي دليل على حضارة ذلك المجتمع ومظهر من مظاهرها . فإذا ابتغانا أبناء مجتمع آخر , لم يستمدوا منها فائدة عملية فحسب , بل تأثروا أيضاً بمحولاتها الحضارية . ولذا كانت التجارة من أقدم , الأزمنة , سبيلاً واسعاً منتجاً من سبل التبادل الحضاري . فالعطور والأفاوية والعاج والذهب وسواها من حاجات الترف التي كانت تُنقل من الهند وغيرها إلى بلدان البحر الأبيض المتوسط في العصور القديمة , وبديلاتها التي كانت تعود من هذه البلدان إلى الشرق , كانت كلها تحمل معها آثار حضارات شعوبها . والطرق التي كانت تسلكها التجارة بهذه .

واذا نحن تدرجنا إلى العصور الحديثة , لم نعد بحاجة إلى كثير من القول للدلالة على هذه الحقيقة . فالمصنوعات الغربية التي تغزوها من كل جانب , تفعل فينا تبديلاً وتحويلاً يكاد يعم كل شأن من شؤوننا وكل ناحية من نواحي حياتنا . ما قولنا , مثلاً , بالسيارة والراديو والسينما , وبما لها ولأقرانها وغير ذلك من أحوالنا الظاهرة والخفية ؟ ان هذه المصنوعات والمستحدثات وجه بارز من وجوه الحضارة الغربية , وسعينا اليها وحرصنا على اقتنائها واستعمالها يؤدي الى " تغربّنا " بتأثرنا بما تمثله أو تحمله من مضمون حضاري .

الاستعمار الحديث :
فإن فيه غزواً وفتحاً وتسلطاً , وفيه انتقال أشخاص من مواطنهم إلى البلدان المستعمرة حكماً أو تجاراً أو مستوطنين مستقرين مستعمرين , وفيه دوافع اقتصادية و أغراض تجارية و أطماع في الاستيلاء على المواد الخام وفي تسويق البضائع والمصنوعات , وفيه غير هذا وذاك وذلك من أسباب انطلاق الشعوب القوية للسيطرة على موارد الشعوب الضعيفة ومصائرها .
وفي هذا الموضع من بحثنا نتناولها كطريق من طرق التأثير الحضاري , مؤجلين النظر في ملابسات التفاعل بين المجتمعات القوية والمجتمعات الضعيفة إلى مكان آخر من هذا الفصل .

لقد تعددت أنواع الاستعمار وأشكاله واختلفت طرقه و أساليبه . فمن أنواع الاستعمار ما يرمي الى استغلال موارد البلد المستعمر والاستيلاء على أسواقه ولا يبغي من حكمه الا مايضمن له هذه الفوائد المادية ويوفرها , ومنها ما يجمع أصحابه الى هذا الاستغلال الاقتصادي ةتوسيع رقعة الحكم اعتقاداً بأن لهم " رسالة تمدنية " خاصة تهيب بهم الى نشر مدنيتهم , بل الى فرضها بشتّى الوسائل على الشعوب التي يحكمون .

أثر الاستعمار على اختلاف أنواعه وأساليبه في التفاعل الحضاري بين المستعملر والمستعمَر , ولكنه تفاعل يجري معظمه من الأول إلى الثاني , حتّى اننا نكاد ندعوه " فعلاً " لا " تفاعلاً " حضارياً , لولا اعتقادنا , كما سنشير فيما يلي , ان كل فعل لابد من ان يصحبه انفعال مهما يكن ضئيلاً , وان كان تأثير لايخلو من تأثر بشكل ما والى حد ما . ان المستعمر يحمل حضارته ويبثها في البلاد المستعمرة بأجهزة الحكم وطرق الإدارة , وبالقوانين والنظم , وبلغته التي يجعلها لغة البلاد الرسمية , وبالشركات التجارية والمشروعات الاقتصادية التي ينشئها , وببضائعه وسلعه ومصنوعاته , وبالمدارس التي يقيمها , وبالبعوث التي ينظمها الى بلده , وبوجوده هو شخصياً حاكماً أو تاجراً أو مستسمراً أو غير ذلك , وبالعديد المختلف من الصلات التي ينظمها بين بلده ومستعمرته . وفي هذا كله وغيره مافيه من تأثير حضاري تبدو مظاهره ونتائجه واضحة للعيان . وهذا التأثير يحمل , في أغلب الاحيان طابع الفَرض وتصحبه محاولات ظاهرة وخفيّة لتبديل المقومات الحضارية الاصيلة بغية توطيد نفوذ المستعمر وسيطرته . فليس من بلد خضع للاستعما وبقي وضعه الحضاري على ماكان , بل لابد من ان تكون حياته قد تبدلت و وتأثر بالحضارة الغربية الحديثة كما تأثر باللون الخاص الذي تمثله حضارة البلد الحاكم , وان يخسر , ولو الى حين , بعض مقوماته الحضارية الأصيلة . ولكن التقدم التقني في العصر الحديث وسعه وفرعه وعدد وجوهه يشكل لاسابق له ولا مثيل , حتى غدا في الوقت الحاضر أوفر السبل نتاجاً وأشدها خطراً في النقل والتأثير . ونعني به نقل الأفكار والآراء عن طريق الكلمة المكتوبة أو الصورة المرسومة أو غيرها من سبل الأداء . فلقد كان اختراع الحرف , كما مرّ بنا , من أعظم الابداعات الانسانية لأنه يسر التعبير عن الفكر وسهل نقله بين أبناء البشر وجاءت ابداعات واختراعات أخرى كصنع الورق والطباعة والتصوير الحجري فالشمسي , فزادت امكانات نشر

الأفكار وضخّت ننتائجها . ثم كانت الآونة الأخيرة , فإذا لدينا الحاكي الذي يحفظ الصوت وينقله , والهاتف الذي ينقل الكلام الى أية زاوية من زوايا المعمور و والراديو والسينما والتلفزيون وغيرها من المستحدثات التي تنقل الكلمة أو الصورة بما هو أسرع من لمعان البرق أو لمح الخاطر , فإذا أنّى كان بمكنته أن يشهد ويسمع مايجري في أقصى الأرض , بل هو عِرضة للصور والأخبارو الآراء تدفع اليه من كل ناحية فتخترق أسوار حياته الخاصة وتنبث إلى صميم فكره ولبّه ومشاعره .

ولهذه المستحدثات خطرها الجسيم لأسباب عدّة , منها وفرتها وتعددها وانخفاض تكاليفها وانتشارها الواسع , حتّى لم يعد يخلو منها أو من بعضها أشدُّ الناس عزلةً في بوادجي الأرض ومجالها ومنائها .

ومنها كما قلنا , قدرتها على النقل السريع الذي أزال فواصل المكان والزمان أو كاد . ومنها امكانها الجمع بين أكثر من وسيلة واحدة من وسائل التعبير . فالكتاب ينقل الفكر عبر الكلمة الصامتة , اما الراديو فقد ينقل الكلمة الحيّة اي الكلمة والصوت معاً , وأما السينما والتلفزيون فينقلان الكلمة والصوت والصورة .

والوتاقع ان التقدم التقني العجيب الذي نشهده في هذه الأيام قد قوّى جميع وسائل التواصل بين المجتمعات والحضارات , حتّى غدت البشرية كلها , كما قلنا , مرتبطة فيما بينها بأوثق الروابط المادية والتقنية وحتّى زالت العزلة الطبيعة من الوجود فالاستعمار الحديث أشد فعلاً في التأثير الحضاري من الفتوح والسيطرات السابقة , وانتقال الأشخاص من مجتمع الى آخر يزداد كل يوم بتحسن وسائل النقل والسفر والسياحة , وانتشار المصنوعات والبضائع يتسع للسب ذاته .

على ان اعظم تبديل احدثه التقدم التقني هو في الوسيلة الأخيرة التي ذكرنا , وسيلة نقل المشاعر والآراء والأفكار وغيرها من المؤثرات الحضارية غير المادية بأدوات البث والتأثير المستحدثة, الفاعلة بصفة خاصة في تحريك الجماهير وفي تبديل أحاسيسها ومعقداتها وتقاليدها ووجوه عيشها وتفكيرها جميعاً .

الحضارة الإسلامية
(نشأتها _ ازدهارها _ تدهورها)

الحضارات التي ظهرت في الجزيرة العربية قبل الإسلام :

1) **اليمن** : طابعها الحضاري هو طابع زراعي , بسبب وفرة الماء , ونجاح الانسان اليمني في الاستفادة من الموارد المائية بإقامة السدود وطابع تجاري , ارتباطها عن طريق القوافل البرية ببلاد الشام , مثلما ارتبطت عن طريق البحر بشرق أفريقية وجنوب أسيا . مثل استبدلوا زراعة القهوة والحبوب بالقات .

2) حضارة الحجاز :

ديني : لوجود الكعبة .

تجاري : فيها القوافل التجارية أو التجارة تمر منها .

أدبي : ارتبط موسم الحج بمباريات في الشعر .

3) حضارة جنوب شرق الجزيرة العربية :

طابعها اقتصادي : جمعت بين أنواع النشاط الاقتصادي : زراعة , صناعة , تجارة .

الصناعي : تم الكشف عن المعادن خاصة النحاس .

التجاري : بسبب مختلف أنواع النشاط البحري (موقع عمُان أو خليج عُمان أو البحر العربي)

الزراعي : بسبب وفرة المياه + المياه الجوفية + أدت إلى حياة زراعية مستقرة واشتهروا بالرياح ووصلوا بنفوذهم إلى أفريقيا .

مولد الحضارة الإسلامية :

_نزول القرآن ورسالة الإسلام على سيدنا محمد عليه الصلاة وأفضل السلام

_احتواء القرآن من نظرة جديدة إلى الإنسان والكون وطبيعة الحياة .

_القرآن الكريم فيه حث قوي على طلب العلم .

_أول كلمة نزلت منه كانت " اقرأ "

_احتوى القرآن أسلوباً حضارياً مثالياً للسلوك البشري

_تنظيم حياة الفرد والأسرة والمجتمع

_القرآن الكريم من إعجازات علمية وحقائق عن الكون والطبيعة

الدين يعرف الإنسان سبب وجوده :

1_فيه حث قوي على طلب العلم

2_أول أية نزلت في القرآن على سيدنا محمد هي " اقرأ "

3_تنظيم حياة الفرد والجماعة

4_جاء اعجاز من القرآن الكريم

5_تنظيم سلوك الإنسان من ناحية علمية فكرية

6_الحديث النبوي الشريف الذي جاء بعد القرآن ليفسر كل ما في القرآن + أعمال سنة الرسول التي يجب ان تتبع من قول / فعل / تقرير .

نمو الحضارة الانسانية :

انطلقت من مكة و المدينة و الجزيرة العربية باتجاه الشمال في حركة الفتوح الكبرى ، اخذت الحضارة الاسلامية تدخل مرحلة جديدة تتصف بالنمو التدريجي اوصلها الى مرحلة الازدهار .

حركة الفتوح الاسلامية ، لم تقتصر على خروج جيوش المحاربين من المجاهدين و انما صحب هذه الحركة خروج قبائل و عشائر عديدة ، بنسائهم و اطفالهم الى البلاد المفتوحة مما اعطاها طابعاً اجتماعياً حضارياً واضحاً . ذلك لأن المسلمين التقو بالبلاد التي فتحوها بحضارات اخرى معظمها عريق بلغ شأواً في الحياة العقلية و النظم السياسية و الادارية و الفنون ، لم يدركه العرب في جاهليتهم . و كان ان ظهرت رحابة صدر الاسلام واتساع افقه ، إذا لم يقف من هذه الحضارات موقفاً عدائياً لأن ذات طابع و جذور غير اسلامية و انما وقف العرب المسلمون من حضارات الامم و الشعوب التي فتحوا بلادها – و بخاصة الحضارتين اليونانية و الفارسية – موقف التأمل و الدراسة و التمحيص .

وقد أدرك المسلمون ان أية نهضة حضارية لا بد من دعامة اقتصادية متينة تتخذ منها ركيزة توفر لها متطلباتها المادية . لذلك حرص المسلمون في دولتهم الجديدة على رعاية النشاط الاقتصادي – من زراعة وصناعة وتجارة وغير ذلك من ضروب النشاط الاقتصادي في البر والبحر – وتوفير الأمن والاستقرار والسلام .

والجدير بالذكر ان الحضارة الاسلامية في مرحلة النشأة لم ترتبط بالعلوم العقلية والتجريبية وحدها , وانما ارتبطت أساساً بالعلوم الدينية الأسلامية والنشاط اللغوي والأدبي , وبخاصة في مجال الشعر .
فالقرآن الكريم كان في حاجة الى تحديد قراءاته مما أدى الى ارتباط علم القراءات بنشأة علم النحو . وكان في حاجة الى تفسير آياته تفسيراً واضحاً أميناً مما أدى الى العناية بالمنطق والتاريخ والعلوم الطبيعية .
كما كان في حاجة الى تنظيم وتبويب موضوعي , مما أدى إلى ظهور البذور الأولى لعلم الحديث , وكل ذلك تطلب استنباط الأحكام من القرآن الكريم من ناحية والحديث النبوي من ناحية أخرى , مما أدى الى مولد علم الفقة .
فصفاء العقل وانبساط البيئة وغنى اللغة , كلها عوامل ساعدت على خصوبة القريحة الشعرية عند العرب , وباتساع الدولة العربية الاسلامية لتشمل بلاداً متنوعة البيئة والطبيعة .

ازدهار الحضارة الإسلامية :

وفي القرنين الثالث والرابع للهجرة _التاسع والعشر للميلاد _ بلغت الحضارة الاسلامية في العصر العباسي درجة النضج والازدهار .
كانت بغداد حاضرة الخلافة العباسية التي قامت سنة 132هـ (749م) لتحل محل الخلافة الأموية في دمشق .
وفي الوقت الذي ازدهرت الحضارة الإسلامية في بغداد انبعث شعاع قوي لهذه الحضارة من قرطبة .

الأوضاع الحضارية في عالم العصور الوسطى :

الواقع ان الحضارة الاسلامية اعظم حضارة عرفها العالم وقد شهدت هذه الحقبة عدة احداث تاريخية أهمها سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب والذين أطلق عليهم الرومان اسم البرابرة , بمعنى المتخلفين عنهم حضارياً .

الخصائص الرئيسية للحضارة الإسلامية :

1. حضارة إنسانية
2. حضارة واقعية
3. حضارة واسعة الأفق
4. حضارة محبة وسلام
5. المرونة

6. التسامح
7. الحيوية والاستمرار
8. الإيمان

JU
Files